المؤتمر القرآني الدولي الثاني
في هدايات القرآن الكريم

تَعظِيمُ اللهِ تَعَالى
فِي هِدايَات القُرْآن الكَرِيم

تنظيم جامعة أفريقيا العالمية بالشراكة مع كرسي الهدايات القرآنية بجامعة أم القرى

عنوان البحث

تربية المهابة وتطبيقاتها عند المفسرين

اسم الباحث

د/ محمد سعيد العُمري

د. محمّد سعيد العمري

تربية المهابة وتطبيقاتها عند المفسرين

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين،،

أمّا بعد؛ فأنزل الله كتابه الخاتم منهجًا شاملًا للبشرية في كل زمان ومكان، للماضي والحاضر والمستقبل، قال تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ولا أعظم من كتاب الله هاديًا للإنسانية، ودليلًا للخير والحقّن قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء]، ويهدي في الآية فعل مضارع يدل علىٰ الاستمرار؛ فمن اهتدىٰ بالقرآن كان أكمل وأقوم الناس، وأحسنهم حاضرًا ومستقبلًا، بل إن القرآن الكريم مصدر لسعادة الإنسان ورخائه ونجاحه في الدنيا والآخرة، قال تعالىٰ: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه].

ومن القضايا الأساسية التي اهتم بها القرآن الكريم تعظيم الله تعالىٰ؛ لذلك تركزت جهود المفسرين علىٰ تعميق تلك القضية وإبرازها، وهنا محاولة لتسليط الضوء علىٰ شيء من تلك الجهود تحت عنوان: (تربية المهابة وتطبيقاتها عند المفسرين).

سبب اختيار البحث:

١- ارتباطه بقضية من قضايا القرآن المحورية ألا وهي: تعظيم الله تعالىٰ.

٢- ضرورة تنويع الأساليب والطرائق في تعزيز هذه القضية وتعميقها في النفوس.

٣- أهمية إبراز جهود المفسرين حيال هذه القضية تقديرا واستفادة.

أهداف البحث:

١- التعريف بمفهوم: تربية المهابة.

٢- ذكر بعض تطبيقات ذلك المفهوم.

٣- إبراز جهود المفسرين في تعميق تعظيم الله من خلال مفهوم: تربية المهابة.

خطة البحث:

جاءت في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة، وذلك علىٰ النحو التالي:

المقدمة: وتشمل (سبب اختيار البحث، أهدافه، خطة البحث).

التمهيد: وفيه: تعريف مفهوم: تربية المهابة.

المبحث الأول: تطبيقات مفهوم: تربية المهابة. وفيه خمسة مطالب:

١- الإظهار في موضع الإضمار.

٢- الالتفات.

٣- ذكر الرب وإضافته

٤- حشد بعض أفعاله وصفاته سبحانه وتعالىٰ.

٥- الابتداء بالاسم العلم أو تكراره.

٦- إيراد نون العظمة.

المبحث الثاني: مقامات تلك التطبيقات. وفيه سبعة مطالب:

١- مقام التعظيم.

٢- مقام التشريع.

٣- مقام الوعد.

٤- مقام الوعيد.

٥- مقام الإيمان والعمل.

٦- مقام القوة والسلطان.

٧- مقام التوبيخ.

الخاتمة: وفيها النتائج والتوصيات.

ويبقىٰ الباحث مهما بلغ شأوه تلميذًا صغيرًا أمام كتاب الله تعالىٰ، وتبقىٰ النتائج التي يخرج بها محل نظر وبحث؛ فمن ذا يحيط بمعاني كلام الله تعالىٰ ودلالاته.

والله أسأل أن يوفقني لما يحب ويرضىٰ، ويرزقني سداد القول والعمل.

وكتبه

د. محمد بن سعيد العُمَري

٠٥٥٩٢٧٥٢٤٠

تمهيد

حتىٰ نستطيع أن نحدد مفهوم: (تربية المهابة) لا بدَّ من تعريف التربية أولًا، ومن ثمَّ المهابة.

والتربية هي: إنشاء الشيء حالا فحالا إلىٰ حدِّ التمام[1].

والمهابة هي: الإجلال والمخافة[2].

وبهذا يكون المراد بتربية المهابة: التنشئة علىٰ إجلال الله ومخافته، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المهابة أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته»[3].

---

(١) التوقيف علىٰ مهمات التعاريف (١٦٩).

(٢) تاج العروس (٤/ ٤٠٨).

(٣) الروح (٢٣٥).

المبحث الأول: تطبيقات مفهوم: تربية المهابة

المطلب الأول: الإضمار في موضع الإضمار

الأصل في الأسماء أن تكون ظاهرة وأصل المحدث عنه كذلك والأصل أنه إذا ذكر ثانيا أن يذكر مضمرا للاستغناء عنه بالظاهر السابق[1] طلبًا للاختصار، ولكن قد تدعو دَوَاعي بلاغيّة لوضع الأسماء الظاهرة في مواضع استعمال الضمائر، وتَحَمُّلِ طُولِ الكلام بهذِه الأسماء الظاهرة، وبهذا دخل استعمال الاسم الظاهر موضع المضمر ضمن طرائق الإطناب ومن تلك الدواعي ما نحن بصدده وهو: تربية المهابة وإدخال الروعة في ضمير السامع بذكر الاسم المقتضي لذلك[2]. وتطبيق ذلك: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء]، حيث ذكر اسم الجلالة ابتداءً (إلا الله) فكان يمكن أن يكتفىٰ بالضمير (فسبحانه).

قال أبو السعود رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإيراد الجلالة في موضع الإضمار للإشعار بعلة الحكم؛ فإن الألوهية مناط لجميع صفات كماله التي من جملتها تنزهه تعالىٰ عما لا يليق به، ولتربية المهابة وإدخال الروعة»[3].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإظهار اسم الجلالة في مقام الإضمار لتربية المهابة»[4].

وهذا كثير في القرآن الكريم[5].

المطلب الثاني: الالتفات

وهو نقل الكلام من أسلوب إلىٰ أسلوب آخر؛ أعني من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلىٰ آخر منها بعد التعبير بالأول هذا هو المشهور، وقيل: إما ذلك أو التعبير بأحدهما فيما حقه التعبير بغيره[6].

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٤٨٤).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٤٩٠). وانظر: الإتقان في علوم القرآن (٥/ ١٦٧٥).

(٣) إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا القرآن الكريم (١/ ١٤٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٤٤).

(٥) انظر مثلا تفسير أبي السعود (١/ ١٤٣، ١/ ١٨٦، ١/ ٢٠٧)، وتفسير الألوسي (١/ ٣٥٤، ٢/ ٨٤، ٣/ ١٢٦). روح المعاني، والتحرير والتنوير (١٣/ ١٧٢، ٢٤/ ١٩٦، ٢٨/ ٩).

(٦) انظر: البرهان (٣/ ٣١٤)، والإتقان (٥/ ١٧٣١).

وتطبيق ذلك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرعد]، حيث تكلم الله في مطلع الآية عن قدرته الباهرة في خلق الأرض ثم التفت من أسلوب التكلم إلىٰ الغيبة مسندا الحكم إلىٰ اسمه العلم (الله).

قال أبو السُّعود: «وفي الالتفات من التكلم إلىٰ الغيبة وبناء الحكم علىٰ الاسم الجليل من الدلالة علىٰ الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلىٰ العلة ما لا يخفىٰ»[(١)].

وهذا كثير في القرآن العظيم أيضًا[(٢)].

المطلب الثالث: ذكر الرب وإضافته

تكرر اسم (الرَّبّ) في آيات كثيرة، والرَّبُّ هو: المربي جميع عباده بالتدبير وأصناف النعم، وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم وبهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل؛ لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة، وهو الذي له جميع معاني الربوبية التي يستحق أن يؤله لأجلها وهي صفات الكمال كلها، والمحامد كلها له، والفضل كله، والإحسان كله، وأنه لا يشارك الله أحد في معنىٰ من معاني الرُّبوبية[(٣)]. فإذا ذكر هذا الاسم أوقع في النفس تأثيرًا ملحوظًا، وإجلالًا كبيرًا، وخوفًا عظيمًا، يتنامىٰ ويزيد عند الإضافة إلىٰ المخاطب.

وتطبيق ذلك: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ [الكهف: ٤٨]. قال أبو السُّعود في تفسير هذه الآية: «وفي الالتفات إلىٰ الغيبة وبناء الفعل لمفعول مع التعرض لعنوان الربوبية والإضافة إلىٰ ضميره ﷺ من تربية المهابة والجري علىٰ سنن الكبرياء وإظهار اللطف به ﷺ ما لا يخفىٰ»[(٤)].

قال تعالىٰ: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «مع ما في ذكر الرَّبّ وإضافته من تربية المهابة، وتقوية داعي العمل بهذه البصائر»[(٥)].

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٨)، وانظر: تفسير الألوسي (١٣/ ١٧٤).

(٢) انظر تفسير أبي السعود (١/ ٦٦، ٥/ ١١٩، ٥/ ١٤١). وتفسير الألوسي (١٤/ ٢٣١، ١٥/ ٢٨٩).

(٣) تفسير أسماء الله الحسنىٰ (١٩٩).

(٤) تفسير أبي السعود (٥/ ٢٢٦)، وانظر: البحر المديد (٤/ ٢٣٩).

(٥) التحرير والتنوير (٧/ ٤١٩).

المطلب الرابع: حشد بعض أفعاله وصفاته سبحانه وتعالى

وتطبيق ذلك: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ ﴾[إبراهيم].

قال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي جعل المبتدأ الاسم الجليل، والخبر الاسم الموصول بتلك الأفاعيل العظيمة من خلق هذه الأجرام العظام، وإنزال الأمطار، وإخراج الثمرات، وما يتلوها من الآثار العجيبة مالا يخفىٰ من تربية المهابة والدلالة علىٰ قوة السلطان»[(١)].

قال تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[المؤمنون].

قال أبو السعود: «﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ ﴾: فتعالىٰ شأنه في علمه الشامل، وقدرته الباهرة، والالتفات إلىٰ الاسم الجليل لتربية المهابة، وإدخال الروعة، والإشعار بأن ما ذكر من الأفاعيل العجيبة من أحكام الألوهية، وللإيذان بأن حق كل من سمع ما فصّل من آثار قدرته عز وعلا، أو لاحظه أن يسارع إلىٰ التكلم به؛ إجلالًا وإعظامًا لشؤونه تعالىٰ»[(٢)]. ولا شك أن إيراد آيات الله العظيمة، ومخلوقاته الباهرة، وأسمائه الحسنىٰ، وصفاته العليا، وحشدها في سياق واحد ليبعث علىٰ الخوف والتعظيم والذي يؤول إلىٰ الإجلال والمهابة.

المطلب الخامس: الإسناد إلى الاسم العلم أو تكراره.

وتطبيق ذلك: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾ [آل عمران].

قال ابن عاشور: «وجيء بالاسم العلَم : لتربية المهابة عند سماعه»[(٣)].

قال أبو السُّعود: «وفي الالتفات إلىٰ الغيبة مع إسناد الخبر إلىٰ الاسم الجليل المستجمع للصفات ما لا يخفىٰ من تربية المهابة وتحقيق معنىٰ الاعتراض»[(٤)].

وتطبيق ذلك في التكرار: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ﴾ [المجادلة].

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٤٧).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ١٢٦). وانظر: البحر المديد (٥/ ١٠)، وتفسير الألوسي (١٨/ ١٥).

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ١٤٧).

(٤) تفسير أبي السعود (٥/ ١٤١). وانظر: تفسير الألوسي (١٤/ ٢٣١).

قال ابن عاشور: «وتكرير اسم الجلالة في موضع إضماره ثلاث مرات؛ لتربية المهابة، وإثارة تعظيم منته تعالىٰ، ودواعي شكره»[١].

وتميّزت الآيات كلّها في هذه السُّورة (سورة المجادلة) باشتمال كل آية علىٰ لفظ الجلالة: (اللّه) لتربية المهابة منه في النفوس، وعدم التجرؤ علىٰ مخالفة أحكامها[٢].

المطلب السادس: إيراد نون العظمة

وتطبيق ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة].

قال أبو السُّعود: «وإيراد نون العظمة لتربية المهابة وإدخال الروعة وإضافة الآيات إليها لإظهار كمال قبح التكذيب بها»[٣].

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ وَلَوۡ أَنزَلۡنَا مَلَكٗا لَّقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ [الأنعام].

قال الألوسي: «وبناء الفعل الأول -أنزلنا- في الجواب للفاعل مسندًا إلىٰ نون العظمة مع كونه في السؤال مبنيا للمفعول -أنزل- لتهويل الأمر، وتربية المهابة، وبناء الثاني -لقضي- للمفعول للجري علىٰ سنن الكبرياء»[٤].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/ ٩.

(٢) التفسير المنير ٢٨/ ٦، لوهبة بن مصطفىٰ الزحيلىٰ، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، ١٤١٨ه.

(٣) تفسير أبي السعود ١/ ٩٣.

(٤) تفسير الألوسي ٧/ ٩٨.

المبحث الثاني: مقامات تلك التطبيقات

تربية المهابة والخوف من الله تعالىٰ مطلب في كلّ مقام؛ فرأس الحكمة وأصل العلم مخافة الله، إلَّا إنّها تتأكد في بعض المقامات؛ فكانت هذه المطالب السّبعة.

المطلب الأول: التعظيم

كل ما تقدم من أساليب وتطبيقات إنّما هي مسوقة لتعظيم الله عز وجل في المقام الأول، وكل ما هو منتم إليه -سبحانه وتعالىٰ- ومرتبط به، كتعظيم شرعه وكتبه ورسله، ومن ذلك: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ۝٤ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٨﴾[طه].

قال ابن عَجيبة: «كل ذلك -أي: ما تقدم من آيات- إلىٰ قوله: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، مسوق لتعظيم المنزل -عزّ وجلّ- المستتبع بتعظيم المنزَّل عليه، الداعي إلىٰ تربية المهابة وإدخال الروعة، المؤدية إلىٰ استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان، واستمالتهم إلىٰ الخشية ، المفضية إلىٰ التذكير والإيمان»[1].

المطلب الثاني: مقام التشريع

تقدم معنا قريبًا في (سورة المجادلة): أنَّ لفظ الجلالة تكرَّر في كلِّ آية منها؛ لتربية المهابة في النُّفوس، وتعظيم ما اشتملت عليه من أحكام شرعية بالتزامها وعدم مخالفتها. ومن ذلك أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١﴾[النساء].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «واستحضر اسم الله العلم -واتقوا الله- هنا دون ضمير يعود إلىٰ ربّكم لإدخال الرّوع في ضمائر السامعين؛ لأنّ المقام مقام تشريع يناسبه إيثار المهابة، بخلاف مقام قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾؛ فهو مقام ترغيب»[2]. وقال عند قوله تعالىٰ: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾[الأنعام: ١٠٤]: «والمقصود التّنويه بهذه التّعاليم والذّكريات الّتي بها البصائر، والحثّ

---

(١) البحر المديد (٤/ ٣٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (٤/ ٢١٧).

علىٰ العمل بها؛ لأنّها مسداة إليهم ممّن لا يقع في هديه خلل ولا خطأ، مع ما في ذكر الربّ وإضافته من تربية المهابة وتقوية داعي العمل بهذه البصائر»[١].

المطلب الثالث: مقام الوعد

قال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ [المائدة: ١٢].

قال أبو السُّعود: «﴿وَقَالَ ٱللَّهُ﴾ أي: لبني اسرائيل فقط؛ إذ هم المحتاجون الىٰ ما ذكر من الترغيب والترهيب كما ينبئ عنه الالتفات، مع ما فيه من تربية المهابة، وتأكيد ما يتضمنه الكلام من الوعد ﴿إِنِّى مَعَكُمْ﴾ أي: بالعلم والقدرة والنصرة، لا بالنصرة فقط؛ فإن تنبيههم علىٰ علمه تعالىٰ بكل ما يأتون وما يذرون، وعلىٰ كونهم تحت قدرته وملكوته مما يحملهم علىٰ الجد في الامتثال بما أمروا به، والانتهاء عما نهوا عنه؛ كأنه قيل: إني معكم أسمع كلامكم، وأرىٰ أعمالكم، وأعلم ضمائركم فأجازيكم بذلك»[٢].

المطلب الرابع: مقام الوعيد

قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [آل عمران].

قال أبو السُّعود: «وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ لتربية المهابة، وإلقاء الروعة والمبالغة في التهديد والتشديد في الوعيد»[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [إبراهيم].

قال أبو السُّعود: «﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ للحساب والجزاء، والتعرض للوصفين؛ لتهويل الخطب، وتربية المهابة، وإظهار بطلان الشرك، وتحقيق الانتقام في ذلك اليوم علىٰ تقدير كونه:

---

(١) المصدر السابق (٧/ ٤١٩).
(٢) تفسير أبي السعود (٣/ ١٥).
(٣) تفسير أبي السعود (٢/ ١٠٤).

ظرفًا له. وتحقيق إتيان العذاب الموعود علىٰ تقدير كونه: بدلًا من ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾[إبراهيم: ٤٤]؛ فإن الأمر إذا كان لواحد غلّاب لا يعار، وقادر لا يضار، ولا يغار، كان في غاية ما يكون من الشدة والصعوبة»[(١)].

المطلب الخامس: مقام الإيمان والعمل

قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾[الحُجُرات].

قال ابن عاشور: «وذكر اسم الله في صدر جملة الاستدراك -﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾- دون ضمير المتكلم لما يشعر به اسم الجلالة من المهابة والروعة، وما يقتضيه من واجب اقتبال ما حَبّب إليه، ونبذِ ما كَرَّه إليه»[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾[النساء].

قال أبو السُّعود: «﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ تكرير للأمر، وتذكير لبعض آخر من موجبات الامتثال به؛ فإن سؤال بعضهم بعضا بالله تعالىٰ بأن يقولوا: أسألك بالله، وأنشدك الله علىٰ سبيل الاستعطاف يقتضي الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه. وتعليق الاتقاء بالاسم الجليل لمزيد التأكيد والمبالغة في الحمل علىٰ الامتثال بتربية المهابة، وإدخال الروعة لوقوع التساؤل به لا بغيره من أسمائه تعالىٰ وصفاته»[(٣)].

المطلب السادس: مقام القوة والسلطان

قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ۝٣٢﴾[إبراهيم].

قال أبو السُّعود: «وفي جعل المبتدأ الاسم الجليل، والخبر الاسم الموصول بتلك الأفاعيل العظيمة من خلق هذه الأجرام العظام، وإنزال الأمطار، وإخراج الثمرات، وما يتلوها من الآثار العجيبة مالا يخفىٰ من تربية المهابة، والدَّلالة علىٰ قوة السُّلطان»[(٤)].

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ٦٠). وانظر: تفسير الألوسي (١٣/ ٢٥٥).

(٢) تفسير أبي السعود (٥/ ٦٠). وانظر: تفسير الألوسي (١٣/ ٢٥٥).

(٣) تفسير أبي السعود (٢/ ١٣٨).

(٤) تفسير أبي السعود (٥/ ٤٧).

وقال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الزُّمَر].

قال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ حتىٰ غفل عن كفايته تعالىٰ، وعصمته له، وخوفه بما لا ينفع ولا يضر أصلًا. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلىٰ خيرٍ ما. ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ يصرفه عن مقصده أو يصيبه بسوء يخلّ بسلوكه؛ إذ لا راد لفعله، ولا معارض لإرادته، كما ينطق به قوله تعالىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب لا يغالب، منيع لا يمانع ولا ينازع. ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ينتقم من أعدائه لأوليائه. وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتحقيق مضمون الكلام وتربية المهابة»[(١)].

المطلب السابع: مقام التوبيخ

قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار -﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾- لتربية المهابة، وتفخيم المضاف، وإبانة كمال قبح ما ارتكبوه»[(٢)].

وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام].

قال أبو السُّعود: «﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي: ولكنهم بآياته تعالىٰ يكذبون؛ فوضع المظهر موضع المضمر؛ تسجيلًا عليهم بالرسوخ في الظلم الذي جحودهم هذا فن من فنونه، والالتفات إلىٰ الاسم الجليل لتربية المهابة، واستعظام ما أقدموا عليه من جحود آياته تعالىٰ»[(٣)].

---

(١) تفسير أبي السعود (٧/ ٢٥٥).

(٢) تفسير أبي السعود (١/ ١٨٦).

(٣) تفسير أبي السعود (٣/ ١٢٧).

الخاتمة

نخلص بعد هذه العجالة إلىٰ النتائج التالية:

١- أن للعلماء وبخاصة المفسرين منهم جهودًا عظيمة في تعميق تعظيم الله تعالىٰ من خلال الهدايات القرآنية وأساليبه البيانية، ومن صورها هذا المفهوم العظيم: تربية المهابة الذي هي ثمرة من ثمار تعظيم الله تعالىٰ والخوف منه، وقد كرسه أبو السعود في تفسيره حيث ذكره تقريبًا ٩٠ مرة، وتبعه في ذلك مستفيدًا منه ابن عجيبة في البحر المديد، والألوسي في روح المعاني علىٰ قلة من الأول وإكثار من الثاني، واستخدم هذا المفهوم غيرهم كابن عاشور ووهبة الزحيلي.

٢- الاستفادة من تنوع أساليب القرآن في تعزيز تربية المهابة في النفوس، ابتداءً من التعبير بخلاف الأصل كالإظهار في موضع الإضمار، والالتفات، مرورًا بذكر أسماء الله وصفاته المشعرة بالإجلال والتعظيم، انتهاء بحشد أفعاله وآياته، والتعبير بما يفيد العظمة والجلال والكبرياء.

٣- تربية المهابة ضرورة تعميقها في النفوس وفي كل مقام؛ ويتأكد ذلك في بعض المقامات كالتعظيم، والتشريع، والوعد والوعيد، والحث علىٰ الإيمان والعمل، وعند الحديث عن قوة الله وسلطانه، وفي مقام التوبيخ والإنكار وغيرها.

٤- تربية المهابة من خلال الاستعراض السابق عملية مستمرة تحتاج إلىٰ تنوع في الأساليب واستمرارية في المتابعة والتنشئة.

ومن التوصيات:

علىٰ الباحثين في الدِّراسات القرآنية الغوصُ في معاني هذا القرآن العظيم، وتدبرها وإدامة التأمل فيها، للخروج للأمة بمناهج ربانية قرآنية في شتىٰ الميادين والمجالات تعين علىٰ استثمارها علىٰ أكمل وجه وأتمه، وبخاصة في ميدان تربية القلوب وتزكيتها، وتعميق معاني التعظيم والإجلال فيها، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك].

المصادر والمراجع

١- الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد، الطبعة الأولىٰ.

٢- إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا القرآن الكريم، لمحمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣- البحر المديد، لأحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الإدريسي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

٤- البرهان في علوم القرآن، لمحمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار إحياء الكتب العربية عيسىٰ الحلبي، الطبعة الأولىٰ ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.

٥- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الزّبيدي، دار الهداية.

٦- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.

٧- تفسير أسماء الله الحسنىٰ، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبيد العبيد، لجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٢١هـ.

٨- التفسير المنير، لوهبة بن مصطفىٰ الزحيلي، دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، ١٤١٨هـ.

٩- التوقيف علىٰ مهمات التعاريف، لمحمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد الداية، دار الفكر بيروت- دمشق، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠هـ.

١٠- الروح، لمحمد بن أبي بكر أيوب ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.

١١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي أبو الفضل، دار إحياء التراث العربي، بيروت.